استلهام أغاني الأطفال الشعبية في كتابة الشعر الموجَّه للطفل في اليمن

د. إبراهيم أبو طالب *

إن الحديث عن استلهام التراث في الأدب الموجَّه للأطفال في اليمن هو حديث واسع يحتاج إلى دراسة تفصيلية. والتراث بأنواعه الفصيح والشعبي، أو بأشكاله المختلفة من فنون الأدب والتاريخ والدين هو مادةٌ خِصبةٌ ومنجمٌ مهمٌّ يمكن للأديب أن يوظفه توظيفًا إبداعيًا مميزًا، وكما كان هذا الرافد في أدب الكبار مفيدًا لتجاربهم الشعرية والسردية والمسرحية، فهو كذلك مفيد ويحقق غايات أديب الطفل وتوجهاته التربوية والقِيمية والجمالية ويفتح آفاق المثاقفة والاستلهام لتراث الأمة ليفيده في بناء عمله الإبداعي في أدب الطفل سواء كان منه ما يوجَّه شعرًا (أنشودة أو أغنية) أو قصصًا، أو مسرحًا.

وليس ببعيد عنا التجارب التي قام بها رواد أدب الطفل في الوطن العربي وبالتحديد جهود الأساتذة الكبار أمثال: الرواد محمد عثمان جلال، وأحمد شوقي، ومحمد الهراوي، وكامل كيلاني، ومن بعدهم عبد التواب يوسف، ويعقوب الشاروني، وأحمد سويلم وغيرهم في مصر، وزكريا تامر، وسليمان العيسى في سوريا وغيرهم الكثير ممن وظَّف حكايات ألف ليلة وليلة في قصصهم أو استلهم روحها أو أعاد صياغتها بشكل مبسط وموجَّه، وكذلك فعلوا بشخصيات عربية شهيرة أمثال: شخصية جحا، وأبي نواس، وغيرهما، فضلاً عن الشخصيات التاريخية ذات البطولات والقيم السامية النبيلة، كما وظفوا الأمثال وحكاياتها كالتجربة الجميلة التي يقدمها الأستاذ فرج الظفيري في مجلة ماجد، وغيرها الكثير.

وبالنسبة لتجربة الكتابة للطفل في اليمن فإنها رغم كل الظروف المحيطة، والصعاب السابقة

* أكاديمي وكاتب أدب الطفل – اليمن.

واللاحقة فإن عددًا غير قليل قد نهض بالكتابة للطفل، ويظهر ذلك في قصص موجهة لهم تستثمر روح التراث التاريخي وقصصه وبطولاته، وكذا شخصياته، وفنونه المختلفة، ومن ذلك –أيضاً– ما كانت تقدِّمه إذاعتا عدن وصنعاء من برامج كثيرة ومتعددة وحكايات تستلهم التراث، وتوجهه الوجهة التربوية والقيمية والجمالية للأطفال.

ولعلنا في هذا المقام نقف عند ملمح واحد من هذا التوظيف والاستلهام للتراث الشعبي ممثلًا في الأغنية الشعبية الموجَّهة للأطفال – على وجه الخصوص– وذلك في أصلها المؤدَّى والموروث منذ عشرات السنين إن لم يكن منذ مئاتها، حيث تتوارثه شفاهًا، وتتناقله الأجيال تلو الأجيال، ويتصف بما يمتاز به الأدب الشعبي عمومًا من صفات وخصائص مثل خاصية الشفوية، والمرونة، والتعديل، والإضافة والحذف، وطبيعة مجهولية المؤلف لأنَّ الشعب هو مصدره ومؤلفه الأول والمتجدد في آن معًا.

وإذا ما عرضنا لمجموعة من النماذج الدالة على ذلك الثراء في هذا النوع من الفنون وهذه الجزئية المحددة، وهي أغاني الأطفال، فإننا نلاحظ عليها ما يأتي:

أنَّ تلك الأغاني التي يؤدِّيها الأطفال في تجمعاتهم وألعابهم، تصاحبُها النغمات والإيقاع الخاص والموروث بحركاته وطريقة تنغيمه، وقد يجتمع فيها الأطفال من النوعين أو يتميَّز كل نوع بعدد من الأغاني الخاصة به، وترتبط بالألعاب عادةً، ولذلك تتميَّز أغاني البنات بخفَّة الحركة ورشاقتها وهدوء الأداء ورقَّته، في حين تتميز أغاني الأولاد الذكور بموضوعاتها الخاصَّة وحركاتها الأكثر خشونة وحيويّة.

وأغاني الأطفال تقوم بدور مهم في تنمية شخصياتهم، واندماجهم في مجتمعهم المصغَّر مجتمع أقرانهم، وهي ذات وظيفة فنِّية في تربية الحس الموسيقي والإثراء اللغوي، والمشاعر الاجتماعية، وتنمية المخزون المعرفي لديهم، وهي ذات عمقٍ تراثي؛ حيثُ لا يُعرفُ قائلها، وتمتاز بمرونتها في الأداء، وتجدُّدها في الأجيال مع المحافظة على الأصل الموروث المتناقل إلى حدٍّ كبيرٍ من جيلٍ إلى جيل، وقد يعدِّلون فيها بالإضافة أو الحذف من مناسبة إلى أخرى، والطفلُ مجبولٌ على حُبِّ النغم، والحركة معًا؛ لذا فهي تؤدَّى غالبًا مصحوبة بالألعاب، ومن أغاني الأطفال الكثيرة والموروثة في اليمن أغنية:

"الكوفيـة الخَــضَرا.. ما فيها؟

فيها زَبيبْ اَخضَر.. هاتِيهَا... إلخ"

وهذه الأغنية مصحوبةٌ بلعبة شهيرة في اليمن يقوم الطفلُ أو الطفلةُ بحمل كُوفِيَّةٍ (قُبَّعة/ طاقية) في يده ويدور حول الأطفال الجالسين في حلقةٍ ووجوههم إلى الداخل – إلى بعضهم – وقد يغمضون أعينهم، وهو يدور من خلفهم، ثم يضعها خلف أحدهم دون أن يَشعرَ، أو يرميَها على رأسه – في حال أغمضوا أعينهم –، ويذهب للجلوس، فإن اكتشفه ولحق به مَن وُضِعت خلفه أو على رأسه وإلا قام هو بأداء اللعبة من جديد.

وعندما يأتي شاعر الطفولة، ويوظِّف مثل هذه الأغنية الشعبية أو يستلهمها في نصٍّ جديد، فإنه ينقلها إلى معنى آخر مستثمرًا إيقاعها ونغمتها وسيرورتها كما فعلتُ ذلك في ديواني المخطوط (وطني العربي) على النحو الآتي:

(البقعةُ الخضراءْ مَا فيها؟
فيها وطنٌ أَخْضَرْ نفديهَا)
أرضِي أنا جَنَّةْ للإنسانْ
وَذِكْرُها مِنَّةْ في القُرْآنْ
والخيرُ في الأَمْصَارْ مَا خَابَتْ
كَالدُّرِّ فِي الأَزْهَارْ قَدْ طَابَتْ
وتُرَاثُهَا أَلْوَانْ مَا أَغْلاهْ
هِيَ خِيْرَةُ الْبُلْدَانْ إِيْ واللهْ
سأُعيدُ أمجادي بالعِلْمِ
وزِرَاعَةُ الْوَادِيْ مِنْ هَمِّي
والْحِكْمَة الحِكْمَهْ عُنْوَانِي
والْخَيْرُ لِلأُمَّهْ إِيْمَانِي

وهناك أغانٍ كثيرةٌ منها مثلًا ما يؤدَّى في المواسم الدينية مثل (التَّماسي)، وهي نسبة إلى تكرار كلمة (المساء)، ولأدائها في المساء، وذلك في منتصف شهر شعبان أو في ليالي رمضان، حيث يسيرُ الأطفال إلى البيوت، وبخاصَّة في المدن لينشدوا بهذه الكلمات، ويتغنَّوا بقولهم:

"يا مسا جيت امسِّي عندكم ... يا مسا زَوِّجوني بنتكم
يا مسا واســـعد الله المسا... يا مسا جدَّدَ الله الكِسَا

يا مسـا ليلـة الشَّعبانيـه ... يا مسـا من يعـوده ثانيـه
يا مسا جيت امسي عندكم ... يا مسا هي لنا ماهيش لكم
يا مسا جيت امسي عندكم ... يا مسا ما دريتو أصلكـم
يا مسا وافسحونا بالشِّعير ... يا مسا نِحْسِكَ الصَّعب الزِّغير"[1].

وهي موروثة منذ زمن طويل، ينشدونها أمام المنازل وفي الحارات، ومن واجب أهل المنزل الذين يقفون أمامه أن يعطوهم شيئًا من المال أو الطعام أو الحلوى وإلا اتهموهم بالبخل، وسوء التصرُّف مع الأطفال.

هذه المقطوعات بكلماتها القديمة والغارقة في العاميِّة، يمكن لشاعر الطفولة أن يستلهمها على النحو الآتي مقتربًا من عالمها وكلماتها المحكية الساكنة الأواخر: كما في أوبريت (عالم الطفولة لكاتب هذه السطور- وهو لا يزال عملًا مخطوطًا):

(يا مسا واسعد الله المسا يا مسا جَدَّدَ الله الكِسَا
يا مَسَا جِيْت امَسّي عِنْدَكُم يا مسا والجمالَهْ هِيْ لَكُمْ)

يا مسا جيت امسي لاجلكم يا مسا كيفْ هِيْ أحوالكم؟
يا مسا جيت امسّي من بلدْ يا مسا كَمْ لَهَا فِي الْمَجْدِ عَدْ
يا مسا اسمها أرض العربْ يا مسا خيرها يَنْفِي الْكُرَبْ
يا مسا أرضها أرض الجمالْ يا مسا رائعةْ فوق الخيال
يا مسا كل أطفال العربْ يا مسا تعزفْ المعنى أدبْ
يا مسا صوتنا رَدَّدْ نِداه يا مسا للبراءةْ والحياه
يا مسا طفل عايش بينكم يا مسا حُبّ يملأ بيتكم
يا مسا للطفولة والسَّلا يا مسا للحلاوةْ والحَلا

ومن الأغاني ما يستخدمُه الأطفال عند الاقترا ع أو الاستهام لعملٍ من أعمالهم أو للعبة من ألعابهم إذ يردِّدون مثل هذه الأغاني:

(١) يا مسا: نداء للمساء وغالبًا ما ينطقُ مقصورًا بلا همزة في اللهجة المحكية، جيت: جئتُ، الشعبانية: ليلة النصف من شعبان ولها طقوسها المعروفة في اليمن بصيام نهارها وإحياء ليلها، ما هيش لكم: ليست لكم، دريتو: عرفتُم، افسحونا: أفسحوا لنا، وأذنوا لنا بالانصراف، شانسير: سنسيرُ، ندِّي: نُحضر، الحبُّ: الحبوب، (خَدِير): منطقة زراعية، نحسك: نطعم، الصَّعب: صغير الحمير، الزغير: الصغير.

"حَجَرَهْ بَجَرَه
قال لي رَبِّي
عِدَّ العشرة
١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١"[٢].

فمن خرج عليه الرقم (عشرة) فهو المَعنيُّ بالأمر لَعِبًا أو عملًا.

ومثل هذه المقطوعة الموروثة يمكنُ لشاعر الطفولة أن يستلهمها في قصيدة كاملة يوجّهها توجيهًا إبداعيًا مختلفًا، لتعليم الأطفال العدد بطريقة غنائية، كما في قصيدتي "عِدّ العشرة" في ديوان (أغاريد وأناشيد للبراءة، مؤسسة الانتشار العربي، ونادي أبها، ٢٠١٦م، ص٢٢٦).

"حَجَرَهْ بَجَرَه
قَالِّي ربي
عِدْ العشرة
١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ *
قالت نِسْمَة:
"تِقْدَرْ" يَا أَحْمَد
تعدْ العَشَرة
قالَ: بَسِيْطَهْ
أَقْدَر طبعاً
أعد العَشَرة
هيَّا عُدّي معنا وغَنِّي:
واحدْ، اثنانْ: (١، ٢)
زهرهْ، وثمرهْ
ثلاثةْ، أربعةْ: (٣، ٤)
نجمهْ، وقمرهْ

(٢) حجرة بجره: كلمة منغَّمة قد تكون على سبيل الإتباع؛ مثل قولنا في الفصيح: حَيْصَ بَيْصَ، وشَذَرَ مَذَرَ وشيطانُ ليطان، ونحوها.

* هذا مطلع من أغاني الأطفال في اليمن، وفيه يَعُدُّ الأطفالُ إلى العشرة ليحدِّدوا شيئًا، أو ليختاروا أمرًا ما في ألعابهم، وبها يتعلم الأطفالُ العددَ أيضًا، وبشكلٍ غنائي.

خمسة، ستة : (٥، ٦)
سحابهْ، ومطرهْ
سبعة، ثمانية: (٧، ٨)
مِعْزَهْ، وبقـرهْ
تسعة، عشرة: (٩ ،١٠)
حَصْوَهْ، وحجرهْ
هذي يا أختي
عدّ العشرة
هيّا نغنِّي وغنوا مَعَنا:
واحد، اثنان: (١، ٢)
زهره، وثمـره
ثلاثة، أربعة: (٣، ٤)."

وهناك من الموروث ما يكون على شكل (فوازير)، يحزرها الأطفال، وتميل إلى الإيقا ع غالبًا، وقد يوظفها ويستلهمها شاعر الأطفال بطريقة حديثة، وفيها عرض لسؤال يستثير تفكير الأطفال يعرفون الحل بعده، من ذلك مثلاً: هذا السؤال عن الشمس، ومطلعه التراثي هكذا: "طاسَهْ طِرن طاسه في البحر غطَّاسه"

ويسأل الطفل ما هي؟، فيكون الجواب: إنها (الشمس). ويفرح الطفل بمعرفة الحل، ولكني أستلهمتها في قصيدة طفولية في الفوازير أيضًا، ولكن بهذه الطريقة التي توسِّع من الفزُّورة (أو السؤال) بشكل شعري يعطي الطفل معلومات أكثر عن الشمس وبأسلوب يجعله يتعرف على خواصها وفوائدها وبربطه بالنص القرآني والمعرفة الدينية أيضًا، فقلتُ – بعد مطلع البداية التراثي– :

بيضاءُ كالماسَه
صفراءُ يبَّاسه
الكونُ لولاها
تَموتُ أنفاسُه
واللهُ أنشاها

من فيض إحساسِه
في الكهفِ تزَّاور
ذاتَ اليَمينِ
وتَقرضُ النوَّامَ
ذاتَ الشمالِ
وباسمها سورة
في الذكر مذكورة
ما هذه الطاسه
في البحر غطاسة؟!" (ديوان هيا نغني يا صغار، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠١٣م، ص١٠٢- ١٠٤).

ومنها ما يرتبط بالتسلسل أو ما يعرف بـ(المتتاليات) في أغاني الأطفال الموروثة، وقد يشتركُ فيها جميع الأطفال سواء ممن يسكن الريف أو المدن، ومن الذكور والإناث، ومنها هذه الأغنية:

"يا قَصَبَه حُودِيْ نُودِي
سَلِّمِي عَلَى سِيدي
وسيدي سَارح مَكه
وعياله فوقَ الدَّكه
كلُّهم يشتوا كعكه
والكعكه من المِخزان
والمخزان يشْتِي دَايِر
والدَّاير من النَّجار
والنجار يشتي حليب
والحليب من البقره
والبقره تِشْتِي حَشيش
والحشيش من الجبل
والجبل يشتي مطر
والمطر مِنَ الله

يا سيدي عبد الله
قم صَلِّي قال: ماشي
قم كَدِّدْ البِرْمِه، قال: نَاهِي"[٣]

ثم يتضاحكون، وتستمرُّ أغانيهم وألعابهم بكل جمال وخفَّة وروعة تناسب أرواحهم الجميلة المُنْطَلِقَة في عوالم البراءة، ويمرحون بهذه المتواليات وبإتقانهم لحفظها، وهي موجودة في كل المجتمعات العربية تقريبًا، ولكن بكلمات مختلفة.

وتوظف هذه المتوالية التسلسلية في شعر حديث يقدَّمُ للطفل في أوبريت (يوم المعلم)، ولكن بمثل هذه الكلمات الجديدة المتناغمة مع عالم المدرسة وفضاءاته الجميلة:

"مَدرستي مَرْحَى؛ مَرْحَى
ما أجملَ حُسْنَكِ صُبْحَا

أسـمعُ فِيْـكِ الأَجْرَاسَـا
تَبْعَـثُ فِـيَّ الإِحْسَاسَـا

أُسْـرِعُ نَحْـوَ الطَّابُـورِ
أَشْـعرُ فِيْـهِ بِـسُرُوْرِ

أمـرحُ فيـكِ مـع الطـلابْ
والطلابْ
أحبـــابْ.. أَحْبَـــابْ

يجمعُهُـم فَصْـلُ وكِتَـابْ
والكتابْ
يَحْتَـــاجْ أُسْـــتَاذْ

(٣) يا قصبه حُودِي نُودِي: من الألفاظ الصوتية التي يُطلقها الأطفالُ إمَّا لمعنًى قد يحتاج إلى تخريجات وتأويلات، أو أنها مجرد ألفاظ صوتية لضبط النغمة كعادة الألفاظ التي يطلقها الأطفال في ألعابهم، الدَّكة: المكان المرتفع في المنزل، بِشْتَو: يريدون، داير: مفتاح، ماشي: لا، كدِّد البرمة: اغرفْ ما في هذا الإناء الفَخَّاري (البرمة) من بقايا الطعام، ناهي: نعم.

والأُسْتَاذْ
أصـــــلُ التَّعْلِيـمْ
والتعليمْ
ســـــببُ التكـــريمْ
والتكريمْ
للإِنْـســـــــــــــانِ

ببنـــــــاءٍ للأَوْطَـــــانِ
وطنـي يـا خيـرَ الأَوْطَـانِ

حُبُّكَ يَجْرِي فِـي الْوُجْدَانْ
ولـــــكَ الحُـــــــبُّ
مَـــدى الأزمـــانْ

(ديوان أغاريد وأناشيد للبراءة، مصدر سابق، ص٢٦١).

وهناك غيرها من القصائد والأناشيد التي استلهمت هذا الموروث، ويمكن أن تنهض بها رسالة أو بحث علمي مستقل، وما عرضناه هنا سوى نبذة موجزة عن استلهام التراث في كتابة القصيدة أو الأغنية أو الأنشودة الموجَّهة للطفل في شعرنا العربي في اليمن.